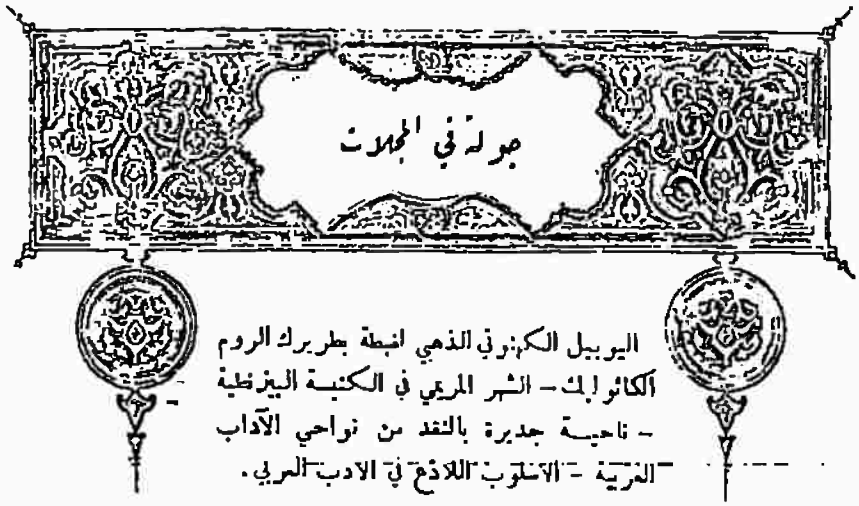

اليوبيل الكهنوتي الذهبي لنيطة بطريرك الروم الكاثوليك – الشهر المريمي في الكنيسة البيزنطية – ناحية جديرة بالنقد من نواحي الآداب الغربية – الاسلوب اللاذع في الادب العربي.

اليوبيل الكهنوتي الذهبي لنيطة بطريرك الروم الكاثوليك

احتفلت طائفة الروم الكاثوليك باليوبيل الكهنوتي الذهبي لنيطة بطريركها الجليل كيرلس التاسع مغبب ، اي بمرور خمسين سنة على رسامة غبطته كاهناً . فعقدت له الحفلات الباهرة ؛ وكانت اولاها وافخمها في مدينة القاهرة في ٣٠ نيسان الفائت . وقد اشتركت فيها الحكومة المصرية ، ونيافة القاصد الرسولي وجميع الطوائف الكاثوليكية من شرقية وغربية اكليروساً وشعباً . فكانت الحفلة الدينية الفخمة قبل الظهر حيث اقيم قداس حبري حافل تلي في اثنائه الرقيم البابوي البليغ الذي مت به قداسة الحبر الاعظم الى البطريرك الجليل. وبعد الظهر عقدت الحفلة الادبية في باحة المدرسة البطريركية ، فتعددت التهاني نثراً وشعراً ، وكان من جملتها قصيدة لشاعر القطرين خليل بك مطران . وقد خصت مجلة المشرق (شهر ايار ١٩٣٣) قسماً من صفحاتها الاولى بوصف هذا الاحتفال الفخم ، وصدرت عددها المذكور بغلاف جميل حلى بالالوان زانة احتفاء باليوبيل المذكور . فنحن نرفع لمقام صاحب الغبطة تهانينا البنوية المكتنفة بالاخلاص والاحترام ، راجين ان يديمه الله الاعوام المديدة ملاذاً للطائفة ، وركناً للكثلكة في الشرق .

الشهر المريمي في الكنيسة البيزنطية

ومما لفت نظرنا في جزء « المشرق » المذكور بحث اقتطفه حضرة الاب الياس اندراوس عن مقال للاب گرومل (Grumel) الصعودي في مجلة « اصداء الشرق » الفرنسوية وقد تناول فيه عادة الاحتفال بالشهر المريمي التي جرى عليها الغربيون في شهر ايار ، وما يقابلها في تاريخ الكنيسة البيزنطية . قال (ص ٢٩٨) :

لبعض الاقطار الغربية شهر موقوف لخدمة العذراء مريم وهذا الشهر هو

شهر ايار المعروف فيما بيننا بالشهر المريمي. على انّ حفلات هذا الشهر غير رسمية بمعنى انها لا تعد جزءاً من الفروض البيعية الرسمية ولا تدخل لها في نظام الطقوس الكنسية وجلّ ما هناك انها عبادة خاصة انتشرت بين المؤمنين منذ عهد قريب[1] فرضيت عنها السلطة الكنسية. وحبّذتها وهكذا انتشرت شيئاً فشيئاً حتى اضحت من العبادات العزيزة على المؤمنين في بلدان كثيرة.[2]

على ان الكنيسة البيزنطية قد عرفت مثل هذه العبادة منذ اجيال بعيدة. اذ انها قد وقفت لوالدة الاله شهر آب من كل سنة منذ القرن العاشر ولعله التاسع . فكان لابنائها فيه شهراً مريمياً حقيقياً . وعندنا ان لهذا الشهر ميزتين كبيرتين على شهر ايار اولاً لاننا نحتفل فيه بعيد من اعظم اعياد العذراء مريم اي بانتقالها الى السماء في الخامس عشر آب ، بعكس شهر ايار الذي لا نجد فيه ذكراً لوالدة الاله . وثانياً لان احتفالات شهر آب في الشرق البيزنطي هي جزء من الفروض البيعية التي رتبتها الكنيسة نفسها . اما صلوات الشهر المريمي عند الغربيين فهي عبادة خاصة لا دخل لها في الصلوات الكنسية الرسمية . ففضل الاولى على الثانية هو كفضل كل صلاة طقسية على الصلوات والعبادات الخاصة.

ويقسم الشهر المريمي عند الشرقيين الى شطرين . اما الاول منها فيمتد من اليوم الاول من شهر آب حتى اليوم الخامس عشر منه وهو وقت قطاعة وابتهال استعداداً لعيد انتقال والدة الاله . واما الثاني فيشمل ايام وداع العيد

١) يرتقي الشهر المريمي الغربي الى اواخر القرن الثامن عشر لا غير . وقد اعترف به الكرسي الرسولي للمرة الاولى في اوائل القرن التاسع عشر في ٢١ اذار ١٨١٥ فهذه العبادة لا ترتقي اذن الى اكثر من ١٥٠ سنة ولم تنتشر فعلاً على النحو الذي نراه اليوم الا في اواسط القرن التاسع عشر.

٢) لقد اختاروا شهر ايار باعتبار انه شهر الربيع والزهور . على ان هذا يصح في بعض البلدان كفرنسة وايطالية واسبانية وغيرها ، على انه لا يصح في جميعها كما هي الحال في جميع البلدان الواقعة تحت خط الاستواء كامبركة الجنوبية والقسم الاكبر من افريقية وجزء كبير من بلاد الهند والهند الصينية الخ . فضلاً عن بلدان كثيرة غيرها شمالي خط الاستواء حيث يعد فيها شهر ايار من الاشهر الحارة. لذلك اعتمدوا اشهراً اخرى لتكريم العذراء حتى في البلاد التابعة للطقس اللاتيني نفسه كما هي الحال في اميركة الجنوبية.

اي من ١٥ حتى ٢٣ منه وهو وقت فرح وتهليل فيه تعظم والدة الاله وتهنئها. وهكذا يخصصون الشهر كله على وجه التقريب لوالدة الاله الفائقة القداسة.

على انَّ مدينة القسطنطينية قديماً قد خصَّصت فعلًا شهر آب بكامله لوالدة الاله شفيعتها وحامية ذمارها. فكان لها اذن شهرها المريمي كاملًا من اليوم الاول من شهر آب حتى ٣١ منه. ولا ريب في ان معظم الغربيين وعددًا كبيرًا من الشرقيين انفسهم قد جهلوا هذه الحقيقة. لذلك رأينا ان نذكرهم بها.

يلي ذلك اشارة الى تاريخ انشاء هذه العبادة على يد الملك اندرونيكوس الثاني (١٢٨٣–١٣٣٨)، والى تنظيم الاحتفال بها في القسطنطينية اذ ذاك.

ناحية جديرة بالنقد من نواحي الآداب العربية

في دمشق مجلة جديدة بلغ عمرها الشهرين. ولكنها، على صغر سنها، تظهر استعدادًا كبيرًا لخدمة النهضة الفكرية في الشرق العربي. هي مجلة «الثقافة» التي يصدرها الاساتذة خليل مردم بك، وجميل صليبا، وكاظم الداغستاني، وكامل عياد، ولها من اسماء محرريها ضمانة كافية للقيام بهذه الخدمة، على ان تبقى غايتها «ثقافيّة» مجرّدة. وقد راقنا في أكثر موضوعاتها واحكامها تحفّظ ضروري، ورغبة في التثبّت جديرة بان تتبعها اكثر صحفنا العربية. وعلى هذا فاننا نرحّب بالرصيفة الجديدة ونتمنى لها بكل اخلاص ان تعمل مخلصةً على رفع مستوى الثقافة السورية. ومما لفت نظرنا في العدد الثاني منها (ايار ١٩٣٣) آراء في الآداب العربية للشيخ عبد القادر المغربي رمى فيها الى تصوير ناحية من نواحي نقد هذه الآداب، فوصف موقف بعض المعاصرين من اللغة ومن اساليب الافرنج، فقال (ص: ١٢٠):

من كتابنا المعاصرين طائفة حديثة النشأة اتخذوا لانفسهم طريقة جديدة في الكتابة ترتكز غالباً على الادب الافرنجي. وتحتذي مثاله في الاسلوب الانشائي.

وانا ارى ان هذا لا يضر آدابنا العربية بل هو اقتباس او تطوّر طبيعي في لغات الامم وآدابها: فان بعضها يقتبس من بعض اساليب كما يقتبس الفاظًا.

لكن هؤلاء المجددين افرطوا في انتحال أساليب الافرنج واكثروا الغضّ من اساليب كتابنا الاقدمين. الى حد ان عطلوا — او كادوا يعطلون — قواعد اللغة العربية: فهم لا يبالون نحوها ولا صرفها ولا يتكلفون عناء مراعاة هذه القواعد في خطبهم وكتاباتهم. بل ذهبوا الى ابعد من هذا: فزعموا ان كل

كلمة عربية مجها ذوقهم وجب أن تموت ويخلفها من كلمات الاعاجم وتعابيرهم ما شاءوا وأحبوا.

ثم لخّص آراء الادباء الاقدمين في البلاغة، واختلافهم في اسنادها الى حسن اللفظ او الى جمال المعنى، وكيف كان الجاحظ ومن اليه يعتنون خصوصاً بالمعاني وقد لا يقيمون للالفاظ وزناً. الى ان كان العصر العباسي الثالث فسادت البلاغة على اساس اللفظ المختار والمعنى الانيق زمن ابن العميد والصاحب ومن غا نحوهما، فتجاوزوا اسلوبها الى المبالغة في التنميق اللفظي حتى

اصبحت الكتابة فيه صناعة لفظية محضة، لا تعبر عن نفسية الكاتب ولا تميز شخصية اديب عن شخصية اديب آخر. وانما اصبح كل من كتب تقريباً (فنوغرافاً) يحكي لنا صدى افكار المتقدمين ويسرد علينا تعابيرهم بتغيير طفيف.

وهذا ما حمل ادباء الافرنج على نقد آدابنا العربية بالجملة، والازراء بكتاباتنا الادبية من دون تفريق، حتى قالوا: انها الفاظ ترن وجمجمة من دون طحن.

على ان الكاتب يقف موقف الوسط في الحكم فيقول (ص ١٢٢):

ولا نسمح لانفسنا ان نقول: ان حسن الالفاظ لا شأن لها في البلاغة والفصاحة وانما نقول: ان الافراط في التأنق ومراعاة الصناعة اللفظية يؤدي الى التكلف والاحالة وان الاهتمام بانتقاء الالفاظ والحرص على حشرها في الكلام يلهي السامع عن تعقل المعاني فيضطرب فهمه. وتنقطع سلسلة تفكيره. ويفقد الكلام قوة تأثيره. واذا ضاع التأثير ضاع كل شيء.

وينتقل من ذكر هذا العيب العام الى عيب خاص طالما انتقده على الادب العربي ادباء الاعاجم من افرنج وترك، فدلّوا على فساد الذوق في طائفة كبيرة من ارباب الاستعمال «مجازات وكنايات واشارات لها معانٍ يقبح ذكرها، وتنفر النفس من تصورها.» فيشير الى مقال كتبه في الموضوع ناقش كمال الاديب التركي في اواخر القرن الماضي، وشاء ان يتنزه عن هذه المساوئ فالصقها «بالآداب لا بالاديات»

كأنه يريد ان يقول: يجب ان نلصقه بآداب الشاعر لا باديبات اللغة. فنقول مثلاً: ان العيب في امرئ القيس وابي نواس وعبد الله بن حجاج: فهم

المسؤولون عن قبح قولهم وليس المسؤول عنه (الادبيات) العربية فهي بريئة من العيب وليست مسؤولة عن عيب غيرها.

قلنا : واذا كان هذا حكم اصحاب الذوق في مجازات واشارات استندت في اصلها الى معانٍ قبيحة ، فما يكون حكمهم في تلك البذاءات الصريحة والاوصاف الشائنة وما اليها من اساليب المجون والاحماض التي لا يكاد يخلو منها كتاب عربي قديم حتى كأن الذين اغنوا آدابنا بآثارهم لم يلتفتوا فيها الى النساء المهذبات، ولا الى الناشئة في طور التثقيف .

الاسلوب اللاذع في الادب العربي

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر ، فاننا نشير الى مقال مفيد للاديب طاهر الطناحي في جزء الهلال الاخير (ايار ١٩٣٣ ، ص ٩٤٢-٩٤٧) قال فيه بين الاسلوب الذوقي المستند الى الاقناع في الذم والتصريح بالسباب الذي يأخذ به كثير من المتناظرين من قدماء ومحدثين، وما دعاه بالاسلوب اللاذع الذي ينال من الخصم عن طريق التهكم والهزء ، على عفاف في اللفظ وترفع في التعبير. قال ، بعد ان انتهى من تحديد الاسلوب الاول والتمثيل عليه ، آخذًا بوصف الاسلوب الثاني (ص ٩٤٤) :

ويمتاز هذا الاسلوب بعفة الالفاظ وتزاهتها عن السخف والابتذال ، ويقوم فيه التلويح مقام التصريح ، ويلعب صاحبه بفكر القارئ فينقله الى جانبه ، ويجذبه الى شيعته — دون ان يحس بأنه يتعسف به ، او يتحامل على خصمه — ويجعله يقتنع كل الاقتناع بأنه لا يدعو الى نفسه وانما يدعو لوجه الفن وللانصاف وحده بلا منافسة ولا ضغينة او حقد كمين ، وهو في الوقت نفسه ينال من خصمه ابلغ منال.

نرى ذلك الاسلوب في غير اثر واحد من الآثار الادبية التي وقع فيها الخصام بين بعض الادباء السابقين . ومنه ما كتبه ابو سعيد محمد بن احمد العبيدي صاحب كتاب الابانة عن سرقات المتنبي في الرد على انصار هذا الشاعر الكبير . واني انقل اليك بعضاً من هذا الرد ، وفيه صدق ما اقول عن هذا الاسلوب اللاذع الذي يجرح بلا سكين . قال ابو سعيد :

« ولست — يعلم الله — أجحد فضل المتنبي وجودة شعره وصفاء طبعه وحلاوة كلامه وعذوبة الفاظه ورشاقة نظمه ، ولا انكر اهتداءه لاستكمال شروط الاخذ (!) اذا لحظ المعنى البديع لحظاً ، واستيفاء حدود الحذف (!) اذا

سلخ فكساه من عنده لفظاً (!) ولا اشك في حسن معرفته بحفظ (!) التقسيم الذي يعلق بالقلب موقعه ، وايراد التجنيس الذي يملك النفس سمعه ، و«الحاقه» في الاحكام ببعض من سبقه ، وغوصه في النهم على ما يستصفى ماءه وروقه (!) وسلامة كثير من اشعاره من الخطأ والخلل ، والزلل والدخل ، والنظام الفاحش الفاسد ، والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستشنع ، واللحن الظاهر المستبشع (!) واشهد انه عن درجته غير نازل ولا واقع ، واعرف انه مليح (!) الشعر غير مدافع ، غير اني مع هذه الاوصاف الجميلة (!) لا ابرئه من بهرقة ... » الى ان يقول : « ولا اطعن في دينه ونسبه ، ولا اذمه لاعتقاده ومذهبه . وكيف يسوغ ان اثلبه لالحاده (!) ، واعيبه لسقوط آبائه واجداده (!) وانا اتحقق ان اكثر من يستشهد باشعارهم المشركون ، والكفار المنافقون ... والادب يجعل الوضيع رفيعاً ... » ! !

فانظر كيف بلغ ابو سعيد من ذم المتنبي هذا المبلغ في غير فحش ولا إقذاع ولا استكراه من سباب كسباب السوقة وشتائم كشتائم السفلة ، فانزله عن مكانته واستطاع ان يتهمه بهذه التهم ويسند اليه من اوصاف النقص ما تتململ منه عظام المتنبي في قبره . ومع ذلك فلم يسمعك سباباً ساقطاً ولا قولاً مبتذلاً ، ولا الفاظاً مستكرهة كما تفعل السوقة من الناس .

وختم مشيراً الى ضرورة الاخذ بهذا الاسلوب المتأدب المظهر في عصرنا :

وانت اذا قارنت ذلك بما كتبه اديب من ادباء العصر في هذا المقام يزيد على اديب آخر اتهمه بالسرقة من كتبه ، لوجدت بين الاسلوبين بوناً شاسعاً . ولا نريد ان نعيد شيئاً مما نشر في هذا الصدد صوناً لنا من نقمة بعض الادباء ، وتنكباً عن طريق السخيمة والشحناء ، وانما نريد ان نقول انه ليتقصنا في هذا العصر ان ندرس الاسلوب اللاذع ، وان نتقيه من ادرانه ، وان نتحو فيه ناحية تتفق وتقدم الحياة العقلية في نهضتنا الحديثة ، حتى يخلص هذا الاسلوب من السخف والشتائم السوقية التي تشوهه وتنزل به من اوج الفن الى درك اللغو من الكلام .